ودقت طبول الحرب من جديد

واحتشدت القوات العثمانية في قرية نصيبين على الحدود العثمانية مع سورية، بقيادة حافظ باشا، كما وصلت الإمدادات إلى إبراهيم باشا. ويرسل الباشا إلى ابنه في يونيو ١٨٣٩ رسالة يقول فيها:

- لا تكتفي بإرجاع جيش الأعداء إلى حدود اتفاقية كوتاهية التي لم يحترموها، بل عليك سحقهم.

وقد استمد إبراهيم باشا من هذه الرسالة شحنة معنوية هائلة، جعلته عازمًا على سحق الجيش العثماني وتدميره عن آخره. ونشبت المعركة، واحتدم القتال، وظهرت براعة إبراهيم باشا في القيادة، وكان النصر حليفه، وخسر كل جانب من الطرفين أربعة آلاف قتيل، بينما تم أسر حوالي اثني عشر ألفًا من القوات العثمانية. وقد قضت هذه المعركة على قوة الدولة العثمانية، وأضعفت قوة محمد علي، وهكذا استطاع الغرب تحقيق الأهداف المطلوبة من هذه المواجهة. وتوفي السلطان محمود قبل أن يبلغه نبأ انكسار جيشه، إذ كان على فراش الموت، وخلف بعده ابنه السلطان عبد المجيد الذي لم يتجاوز سنه السابعة عشر، فلم يدر كيف يتجه بين العواصف التي هبت على عرشه، وما زاد الطين بلة كما يُقال هو قيام القبودان أحمد باشا فوزي قائد الأسطول العثماني بخيانة الباب العالي، والإبحار بالأسطول إلى

الإسكندرية، وتسليمه إلى محمد علي باشا الذي ابتهج كثيرًا بسبب ذلك، وكان البحارة والجنود على متن الأسطول يعتقدون أن هذا التحرك ليس مقصودًا منه سوى أعمال حربية، فلما وصلوا الإسكندرية واكتشفوا حقيقة ما حدث، هربوا من فوزي باشا وعادوا إلى الأستانة. وبهزيمة الجيش العثماني وانضمام الأسطول العثماني إلى الأسطول المصري، أصبح محمد علي باشا يمتلك قوة ضاربة برًّا وبحرًا. ويقول الباشا للاظ بك مبتسمًا وهو يدخن، حيث يجلسان معًا كعادتهما يشربان القهوة في قصر رأس التين بالإسكندرية:

- نحن الآن يا لاظ بك في أوج قوتنا في البر والبحر.

ولم يستطع لاظ إخفاء قلقه فقال:

- أجل يا أفندينا، ولكن الدول...

وقاطعه الباشا قبل أن يكمل كلامه قائلًا:

- الدول، الدول ماذا يا لاظ؟ متى ستكف عن هذا القلق وتعيش بهجة الحدث ولو لمرة واحدة؟

ولكن مع مرور الوقت، اكتشف الباشا أن لاظ بك كان على حق، فقد تم عقد مؤتمر في لندن بحضور خمس دول كبرى لفرض وصايتهم على الباب العالي، ولتقرير ما يجب عليهم عمله حيال ما حدث، ومناقشة ما

سُمِّي بالمسألة المصرية أو الشرقية، وهذه الدول هي إنجلترا وفرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا،

وقرروا أن يبقى الباشا تحت السيادة العثمانية ولو بالقوة، وأن يتخلى عن سورية وجزيرة العرب وأدنة وكريت، وينكمش داخل مصر، وتآمرت الدول عليه وحاربته، وقصَّت أجنحته وقضت عليه بتقليص عدد قواته إلى ١٨٠٠٠ جندي، ومنعته من بناء السفن، وقررت إعادة الأسطول العثماني إلى الباب العالي، وتدمير وأسر سفنه في عرض البحر سواء كانت حربية أو تجارية، كما قرروا أن يدفع جزية سنوية للباب العالي، وأن تكون قواته جزءًا لا يتجزأ من قوات الدولة العثمانية، فلا يعمل بشكل مستقل عنها.

وكل ما منحوه للباشا من امتيازات هو أن يكون حكم مصر وراثيًّا في أسرته.

ولم يكن فرض كل هذه الشروط على الباشا سهلًا، فقد رفضها بالكامل في البداية وقاومها بالقوة، ولكن التحالف كان أقوى بكثير، فقد احتلوا جميع موانئ سورية، وأثاروا شعوب الشام ضده، وقاتلوا إبراهيم باشا ومنعوا عنه إمدادات أبيه، بل وهددوا الباشا في عقر داره؛ وأرسلوا إلى الإسكندرية ذاتها أسطولًا ضخمًا لاستعراض القوة فيما يُسمى مظاهرة بحرية، فشعر الباشا أن المؤامرة أكبر من إمكاناته، فرضخ في النهاية لشروط معاهدة لندن التي تم توقيعها في ١٥ يوليو ١٨٤٠ بين إنجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا والباب العالي.

ولكن كان موقف فرنسا هو أكثر ما أدهش الباشا، فكيف لم تمنع باقي الدول من المؤامرة عليه، ويبدو أن الباشا لم يكن يعرف أن فرنسا لم تختلف يومًا عن باقي الدول، وأنها كانت تساعده لأسباب وأغراض خاصة، فكان وقع الصدمة هائلة على الباشا.